١ ـ إن رأينا أسداً يدخل قفصه في حديقة الحيوان فإننا سنقول : «دخل الأسد قفصه». والمعنى هنا واضح ومحدد إلى حدٍّ كبير. فالكلمات تستخدم بمعناها المعجمي الأصلي، وكلمة «الأسد» تشير إلى الحيوان المعروف الذي يسير على أربع، والذي يمكن أن نعرف صفاته التشريحية الكاملة المادية بالعودة إلى المعاجم العلمية عن الحيوان، فالمسافة بين الدال والمدلول ضيقة.

ولكن إن رأينا رجلاً فيه صفات معينة مترابطة ترابطاً فريداً مما يبعث فينا إحساساً بنبله وعظمته وشجاعته، فإنه يمكننا أن نقول : «هذا إنسان نبيل وعظيم وشجاع»، ويمكن أن نضيف ما نريد من الكلمات وأن نرصّها رصّاً، ولكن رغم هذا ستكون عبارتنا غير مركزة، ولا تعبِّر بشكلٍّ كاف عن إحساسنا. فالشجاعة والعظمة والنبل صفات مجردة للغاية، ويمكن أن ندركَ كل صفة على حدة، بشكل مجرد، لكن ماشعرنا به هو إحساس بهذه الصفات مجتمعة بشكل فريد في هذا الرجل، وبدرجة معينة لا تتوافر في الآخرين، وبشكل مباشر متعين يجعل الكلمات المعجمية عاجزة تماماً عن نقل هذا الإدراك الخاص بنا وهذه الفرادة التي رأيناها في هذا الرجل. ولذا فإننا نهرع إلى عالم الطبيعة والمحسوسات نبحث عن عنصر محسوس فيها لنحوله إلى إشارة كافية إلى هذا الإحساس، فنقول : «جاء الأسد».

والعبارة السابقة رغم بساطتها الظاهرة إلا أنها نتيجة عملية في غاية التركيب. فابتداءً تحوي العبارة طرفين : صفات الرجل (خصوصاً شجاعته)، وصفات الأسد (خصوصاً شجاعته)، وقد ربطنا الواحد بالآخر، فتكشفنا صفات الرجل من خلال قيامنا بربطها بالمحسوس والمتعين، أي صفات الأسد. وقد تمت عملية الربط هذه من خلال عمليات في غاية التركيب. فنحن أخذنا كلمة «رجل» (المحذوفة في الاستعارة، والتي لا تحذف في حالة التشبيه ـ وهو أمر لا يهمنا كثيراً) وأفرغناها قليلاً من محتواها الإنساني، ونظرنا إلى بعض جوانب الرجل باعتباره أسداً. ولكننا فعلنا شيئاً قريباً من هذا مع الأسد، إذ إننا أخذنا بعض جوانب وجوده المادي وأفرغناها قليلاً من مضمونها الطبيعي/ المادي، ونظرنا للأسد (في جوانبه هذه)